٢٣ في ذكراكِ

في ذكرى رحيلك هذه المرة يا ليلى كنت معك بين أكداس من الصور التي احتفظنا بها معاً، فإذا هي تسجّل كل مراحل حياتنا المشتركه.

فها نحن نمشي معاً في شوارع بيروت العتيقة يداً بيد.

وها نحن جنباً إلى جنب في متنزَّه، أو مطعم، أو في حفلة زفاف، أو في حفل استقبال بهيج.

وها نحن في كل مكان من العالم، في أميركا، في روسيا، في فرنسا، في بريطانيا، في إسبانيا، في هونغ كونغ، في الفليبين، في كوبا، في تركيا، في الكويت، في تونس.

أنا أذكر، فهل أنت يا ليلى تذكرين، أن زواجنا كان أول أيام الربيع؟
وكنا نحسب العمر بعدد مواسم الربيع.
هذا إلى أن غادرتني، ولي من العمر دهر من مواسم الربيع.
واليوم ألقاك، بعدما فاتني الربيع... بعدما مرّ عام كامل ثانٍ من غير ربيع.
في موسم الأزهار أفتقد زهرة.
في موسم الورود أفتقد وردة.
في موسم الحقول السندسية، أفتقد خضرة العين الضاحكة.

في موسم الأنس، فيما الألوان من حولي تناجي الألوان، والأنسام تداعب الأغصان، والعصافير تثرثر بين الأزهار، والبحر من بُعدٍ يُلحّ بموج يدغدغ الرمال، أشعر بالوحشة تلفني. فأين طيفك يُطلّ من علياء بيتك على بحر يضيق بالأحلام؟

لم نعد يا ليلى نحسب العمر بمواسم الربيع المتجددة، وإنما بيوم منه، فيه نلقاك.

وها أنا اليوم شيخ عمره يومان. ترعاني وحيدتي كالأم الرؤوم، حادبةً، حانية.

حاولت يا ليلى أن أشاغل النفس عنك، تماماً كما تريدين أنت أن أتشاغل. كتبتُ وحاضرتُ وناقشتُ، وطفتُ العالم مشرقاً ومغرباً، فإذا أنت معي في الطائرة، في غرفة الفندق، في الشارع المزدحم، في قاعة المؤتمر.

كلما نفرت إلي، حلقي غصّة، أسائلك أنت كيف أسلوك.

كلما ألممتِ عليّ في أحلامي وصحوتُ، حاولت أن أُغمض الجفن لأستعيدك فإذا بالكرى جفاني.

وها أنا في صورك، في صورنا، أستعيد ذكريات وذكريات.

أنا أذكر، فهل أنت يا ليلى تذكرين، يوم رُزقنا ودادَ وعرضتِها عليّ بوجه يعمر بالزهو والفرح، وكأنما حققتِ بها إنجاز حياتك. فما إن وقع بصري عليها حتى قلتُ: سبحان الخالق العظيم، هذه لحظة أشعر فيها بأنني أجتاز منعطفاً في حياتي: هنا ينتهي مستقبلنا ويبدأ مستقبل هذه الصغيرة الجميلة. فما من حركة نبديها بعد اليوم، ولا من فكرة تراودنا، وما من كلمة نتفوّه بها، إلا من أجل هذه الوافدة الصغيرة على حياتنا.

فما كان منك إلا أن بادرتني بالقول: كلا ثم ألف كلا. كان لنا مستقبل، وأضحى اليوم لنا مستقبلان، مستقبلك ومستقبل الحبيبة الصغيرة.

هكذا كان قلبك الكبير يتسع لكل من تحبين، ولفسحة من الأمل لا حدود لها.

كنت تقدّمين لي أقصى ما عندك، وكنتِ مستعدة لمثله لابنتنا.

وأنا أذكر، فهل أنتِ يا ليلى تذكرين، يوم رُزقتْ وداد مولوداً حُمّل اسمي. فكررت أمامك ذاك القول إياه، فعاجلتني بالجواب مُصححةً: غدا لنا الآن من المستقبل ثلاثة: مستقبلك، ومستقبل ابنتنا، ومستقبل الحبيب الصغير.

هكذا كان نكرانك لذاتك يا ليلى سخيًّا من أجل من أحببتِ. فلم يخطر ببالك أن يكون لنا من المستقبل رابع يكون لك أنت. أم هل كنتِ تشعرين بدنو موعد الرحيل إلى دنيا الحق، فلا غد ولا مستقبل؟

كان ذلك بعد أيام معدودات من احتفالنا بمرور العام الأول على مولد حفيدنا، فتناسيتِ وطأة المرض وأطلقتِ العنان لبهجة عارمة، كأنما شئتِ أن يكون لنا منها زاد نستدرّ قبساً منه كل عام لعمر من الزمن.

وأنا أذكر، فهل أنت يا ليلى تذكرين، لحظة عرضتُ أمامك صورة حفيدنا وصورتي إذ كنتُ طفلاً في عمره الغض، فإذا أنتِ تتأملين الصورتين والبسمة لا تفارق ثغرك، ولا تلبثين أن تعلقي: لله ما أعظم الشَّبَه، كأنما الصورتان نسختان لصورة واحدة. ثم رفعت طرْفك إليّ مستدركة، بصوت اعتذاري خفيض: ولكنّ عينيه أحلى من عينيك. فهل يزعجك قولي هذا؟

لله يا ليلى، كيف يمكن أن تزعجني عفوية صدقك وطهرك؟ ثم كيف يزعجني أن يكون غدي أحلى لعينيك مني، وحفيدك، مهما قلتِ يا ليلى عن المستقبل، هو غدي الحلو الواعد.

وأنا أذكر، فهل أنت يا ليلى تذكرين، يوم أنجزتُ أُطروحتي للدكتوراه في أميركا، فانكببتِ على طبعها بيديك. وعندما تناولتِ من يدي الصفحة الأولى، التي سجلت فيها عرفاني لأستاذي، بادرتني بالسؤال مداعبة: ألن تعترف بجميلي عليك في إنجاز هذه الأطروحة. وكان ردّي عليك مداعباً: بلى. سوف أكتب في فاتحة الكتاب عند نشره أنني مدين بهذا العمل لمن استطعتُ إنجازه برغمها.

فكان أن ضحكتِ كثيراً، وأكاد أسمع رجع تلك الضحكة هذه اللحظة. ولكم رويتِ هذه المبادلة بيننا للقريب والصديق، ولكم ضحكتِ لها.

أنا مدين لك يا ليلى بكل ما كان من بهجة الحياة، وما أَنعم به اليوم من بهجة الذكريات.

ولقد علمتْني بهجة الذكريات أن أحبّ قدري. فإن كان هذا قدري، فأنا يا ليلى بتُّ أحبه.

أنا أذكر، فهل أنت يا ليلى تذكرين، يوم لم أكن أحفل بأصول السلوك كما كنتِ أنتِ. وكنتِ كلما حاولتُ دخول الباب قبلك أوقفتني برفق بيدك، ونبّهتني بنبرة تنضح لطفاً أن حق المرور هو أولاً للسيدات. ولما غاليتُ في التجاوز لم تترددي في مواجهتي بالقول مداعبةً: ألا تعلم القول الإنكليزي المأثور إن السيدات أولاً حتى إلى الجحيم؟

أستودعك الله يا ليلى بالقول: أمثالك من الناس هم أولاً إلى النعيم، إلى جنان الله الواسعة. تغمّدك الله برحمته ورضوانه.